بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله ، وعلى آله وأصحابه ومَن والاه .

وبعد ..

فإن الهزيمة التى حاقت بالعرب في عام ١٩٦٧ ، وفقدوا فيها ما بين القنطرة والقنيطرة ، وأصبح المسجد الأقصى فى قبضة إسرائيل . كانت إحدى الكوارث الكبرى فى تاريخ هذه الأمة .. ولا يشبهها إلا نكبة التتار حين دخلوا بغداد ، ودمروا الحضارة الإسلامية ، وأسقطوا الخلافة العباسية ، وخربوا من الدور ، وأتلفوا من الكتب ، وذبحوا من البَشر ، ما لم يكد يحدث مثله فى التاريخ .

ومن حق هذه القارعة الهائلة فى تاريخ العرب والمسلمين أن تتناولها الأقلام بالتحليل والدراسة لتأخذ منها العبرة ، وتقتبس منها الفطنة .

ولقد كنت راغباً عن الكتابة فى هذا المجال ، ليقوم به مَن هم أقدر منى عليه ، وأخص به من رجال الفكر الإسلامى .

ولكنى وجدت شتّى الأقلام تتناول هذه القضية من زواياها المختلفة ، وجلها غريب عن هذه الأمة وتراثها وعقائدها وقيمها الأصيلة .

لقد ساءنى أن أجد بين قومى مَن يعللون الأحداث الكبار ببساطة وضحالة عجيبة . فكارثة ١٩٦٧ الكبرى سببها غلطة عفوية ، أو خيانة من بعض الأشخاص . ولولا غلطة فلان ، أو خيانة علان لتبدل الموقف من هزيمة ساحقة إلى نصر مؤزر .

وغاظنى أن أجد من الناس مَن يتجاهل الحقائق الناصعة ، وينكر الشمس فى رابعة النهار ليثبت ما يستحق النفى وينفى ما يستحق الإثبات .

ومن هنا قويت عزيمتى على الكتابة .

ثم كان أن طلبت إلىّ مجلة « حضارة الإسلام » الغراء كتابة مقال لها عن « دور الفكر فى قضية فلسطين » فى عدد خاص تصدره بشأن القضية ، فكان ذلك هو السبب المباشر لكتابة هذه الصحائف التى أقدمها للقارىء اليوم .

وأنا لست من محترفى السياسة الحزبية ، ولكن دينى علّمنى أن مَن لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم .

والذى يهمنى فى القضية - بصفة أساسية - هو الجانب الفكرى فيها .

ولهذا فإنى أتحدث هنا من زاوية الفكر أكثر من زاوية السياسة والتاريخ . والذى يعنينى أولاً هو مناقشة الأفكار وتصحيحها قبل أن يعنينى سرد الوقائع وتصنيفها .

إن مهمة الفكر فى القضية أن يعمق الوعى بها ، ويزيح الضباب والقتام من حولها ، ويجليها للعقول والبصائر كما هى بلا مغالطة ولا تزييف ولا غلو ولا تحيز .

مهمة الفكر أن يرد الأشياء إلى أصولها ، ويربط الحوادث بأسبابها البعيدة العميقة ولا يكتفى بما يطفو على السطح ، ولا يخدع بما يبدو للناظر المتعجل كأنه ماء وهو فى حقيقته سراب .

مهمة الفكر أن يُعرِّفنا : مَن نحن ؟ وما رسالتنا ؟ وما دورنا ؟ ومَن عدونا وما حقيقته ؟ وماذا نملك وماذا يملك ؟ حتى نكون على بيِّنة من أمرنا .

مهمة الفكر أن ينظر إلى الغد البعيد ، ولا يخطف بصره الحاضر القريب ، إنما يستفيد من درس الأمس ، وآلام اليوم ، لآمال الغد .

مهمة الفكر أن يوضح لنا الهدف ويرسم لنا الطريق ، ويضع أيدينا على العقبات والمعوقات . هذه هى مهمة الفكر وهذا دوره . وهذا ما يجب أن يقوم به وخاصة فى ديار الإسلام . فهل أدى الفكر دوره فى ذلك ؟

كان المفروض أو المظنون بعد نكبة ١٩٦٧ أن يصحو الفكر السكران ، ويستقيم الفكر الأعوج ، ويظهر الفكر الأصيل ، ويختبىء الفكر الدخيل والفكر السطحى والفكر الجبان . ولكن خاب الظن وطاش السهم . وأصبحنا نقرأ ونسمع ألواناً من الفكر فى تفسير الأحداث وتعليل الوقائع ، لا تستحق إلا الرثاء .

إن مأساة فلسطين هى نذير إلهى للمسلمين ليعودوا إلى دينهم بعد طول غياب فيستيقظوا من سبات ، ويحيوا من موات .

والذى نؤكده من هذه الصحائف هو ضرورة العودة إلى الإسلام .. الإسلام الصحيح .. الإسلام الشامل الذى يعيدنا - كما كنا - خير أمة أُخْرِجت للناس .

وبدون هذه العودة أجد المصير مخيفاً ، والمستقبل يحفه الرهبة والظلام . ومطامع إسرائيل لم تنته بعد ، ولم يكفها كل ما اغتصبته لتشبع نهمتها . فلا زال فى أحلامها أراض فى العراق ومصر وفى الحجاز : فى المدينة عند قبر الرسول ومسجده صلى الله عليه وسلم . حيث كان يقيم يهود بنى قينقاع وقريظة والنضير . وغيرهم من يهود خيبر والحجاز .

فلنصدقن الله ليصدقنا الله ، ولنغضب لله ليغضب لنا ، ولننصره حتى ينصرنا . فقد قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ

إن تَنصُرُواْ اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّت أَقْدَامَكُمْ * وَالَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعْساً لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُواْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴾ (١) .

فكيف ننتظر نصر الله وأزمتنا فى أيدى الذين يكرهون ما أنزل الله ؟

هذا هو رأيى الشخصى فى المخرج من هذه النكبة الكبرى ، وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

شعبان ١٣٨٨ هـ - نوفمبر ١٩٦٨ م

د . يوسف القرضاوى

* * *

(١) محمد : ٧ - ٩